ابتسامتها الرافئة

ابتسامتها لا مثيل لها

هل تصدقونني ؟

*** ***

تعالوا إذن ،

وافتحوا قلبي بالسكين

واغسلوه بالماء والثلج والبَرَدْ

وابحثوا جيداً

تجدوا ابتسامتها مختبئة

في ركن خفي بأعماق القلب

ركنٍ مكين

*** ***

ولابد أن يكون هذا الركن

أميناً عليها

وعلى ابتسامتها

لذلك لن أبوح باسمها

ولا بشيء يدل عليها

وإنما سأشدو بأغنية فيروز :

لا تسألوني ما اسمه حبيبي

أنا وحدي الذي اقتنصت هذه الابتسامة

وخبأتها في قلبي ،

وبين كتبي وأوراقي

وقصائدي الجديدة والقديمة

ونمت على شعاعها ،

وصحوت على حفيفها

فهي لي أنا وحدي

وسأكون أميناً عليها حتى الموت

لأن صاحبتها أحب الناس

وما كنت أعرف أنها كذلك

إلا عندما كان يتألّق الغياب

*** ***

حنين غامض ،

كان يجرفني إليها كلما غبت عنها

وحين أعود وأراها

يجيش القلب بالفيضان

وكأنني أجرب الحب لأول مرة

أو تهتز مشاعري بفرح عنيفٍ ،

كالبكاء

وكأنني طفل يعثر على أمه فجأة

بعد أن فقدها في الزحام

*** ***

هذا الإحساس الطاغي

كيف لي أن أعبر عنه

وأنا في صحبة امرأة مثلها

*** ***

امرأة تمنح للروح بهجتها

وللقلب حزنه

وللعينين تأملاً وجمالاً

وأنا رجلٌ حزين

حزينٌ حتى النخاع من عظامي

حتى إشراقة اليوم التالي

لأرى ابتسامتها الدافئة

تشرق من جديد

*** ***

حين فقدت شقيقي ، ثم أبي ،

في عام واحد

حين فاضَ بيَ الحزنُ ،

وطفا على الوجه غيهب السكون ،

وتماوج في مآقي العينين كالسحاب

كانت ابتسامتها وحدها

هي التي تبدِّدُ هذه الغيوم

وتأخذ بيدي إلى آفاق موصولة

بالعزاء والأمل والحياة

فلماذا إذن تغيب عني هذه المرأة

التي لا مثيل لابتسامتها

ولماذا تأخذها مني أيام الجُمَعِ ،

والعطلات الرسمية

والأعياد ؟

*** ***

حين فقدت أباها

أفلتت منها لهجة ريفية عارضة

وهي تقول : يا أبي

فعصرت كل ما في القلب البشري

من جمال

هل هو الحزن المطبوع إذن ؟

أم أنه الإيمان العميق ؟

إنني لم أستطع حينها

أن أنتزع ابتسامتها القديمة

لذلك جاريتها

واتَّشَحت مثلها بالسواد

فهل فطنت الجميلة

إنني بدون ابتسامتها

تحولت حياتي إلى حداد ؟

*** ***

ابتسامتها لا مثيل لها

وأنا أترقب اليوم

الذي تخلع فيه ملابسها السوداء

وتعود إلى ملابسها الزاهية

وابتسامتها القديمة

*** ***

عندئذ ، ستبدو وكأنها ،

امرأة جاهزة للسفر

فأصطحبها في رحلةٍ ،

إلى مدن العالم السبع

مدتها أربعة فصولٍ كاملة

تعود بعدها إلى بيتها السعيد

وأعود أنا

إلى حزني وأوراقي

منتظراً الصباح الذي أراها فيه

كالفرس الحرون وراء مقعدها

منتظرا الظهيرة

التي تعدو فيها أمامي

كالمهرة الجموح

وأنا أطاردها في الممرات ،

والوديان

والسهول

لأملأ عينيَّ من جمالها الفاخر

وأظفر بابتسامتها الدافئة